مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، يقول الحق وهو يهدي السبيل، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

أردت في هذا الكتاب أن أقدم صورة واضحة للفلسفة التحليلية تكشف عن منهجها، وأعلامها، واتجاهاتها، ومشكلاتها الأساسية، وتطورها، واختلافها عن المدارس الأخرى.

الفلسفة التحليلية مدرسة في الفلسفة الغربية، نشأت بصورة واضحة المعالم مع مطلع القرن العشرين بريادة فلاسفة مثل فريجه، ورسل، ومور، وفتجنشتين، وشارلي برود، وسوزان ستبنج. وتجلت في كتابات فلاسفة التجريبية المنطقية، ومدرسة كيمبردج، ومدرسة أكسفورد. ثم انتقلت إلى أمريكا على يد كواين وأنصاره مثل ديفيدسون وبتنام ولويس، فضلًا عن هجرة أعضاء جماعة فيينا وجماعة برلين إلى أمريكا هربا من النازية. وبحلول الخمسينيات من القرن الماضي، أصبحت الفلسفة التحليلية مهيمنة على العالم الناطق باللغة الإنجليزية بأكمله واحتفظت بهذه الهيمنة إلى يومنا هذا. ولم يكد القرن الماضي يطوي صفحاته حتى انتشرت في جميع أنحاء العالم، وتأسست لها جمعيات علمية كثيرة حتى في المناطق المعادية مثل أوروبا.

والشيء الخليق بالذكر أن الفلسفة التحليلية قبل أن تمتد إلى مناطق شتى من العالم، وجدت في مصر عند منتصف القرن الماضي تأييدًا من زكي نجيب محمود وتلاميذه عزمي إسلام ومحمد مهران، ومن سايرهم مثل محمد مدين وسهام النويهي

وكاتب هذه السطور. ولا يفوتك أيضًا أن الأساتذة العرب الذين تناولوا هذه الفلسفة شرحًا وتطبيقًا كان لبعضهم حظ دراستها في مصر مثل سحبان خليفات.

الفلسفة التحليلية ليست وليدة القرن العشرين، وإنما تستطيع أن تلتمس أصولها في الفلسفة القديمة عند سقراط، مثلًا، في توضيح معاني المفاهيم الأخلاقية مثل التقوى والشجاعة. وتجدها في الفلسفة الحديثة عند لوك وباركلي وهيوم في تحليل الأفكار المركبة إلى مكوناتها البسيطة. لقد اعتقد هؤلاء التجريبيون البريطانيون أن طريقة التحليل هذه لن توضح الأفكار الإشكالية والمعقدة فحسب، بل ستلقي ضوءًا شارحًا أيضًا على أصول أفكارنا، وكذلك على مصادر المعرفة الإنسانية وحدودها. وتجدها عند كانط في تحليل الأحكام، وتحليله النقدي لأسس العلوم. ودع عنك تصور رورتي للفلسفة التحليلية على أنها شكل مختلف من الفلسفة الكانطية، يتميز بالتفكير في التمثيل بوصفه لغويًّا بدلًا من أن يكون عقليًّا، والتفكير في فلسفة اللغة بدلًا من النقد الترنسندنتالي.

لكن هذه السمة التحليلية للفكر الموجودة في العصور القديمة والحديثة على السواء لم تكن طابعًا عامًا يطبع العصر برمته، وإنما كانت من بين مكوناته. فالفلسفة القديمة وفلسفة العصر الوسيط يغلب عليها التأمل وبناء الأنساق الفلسفية، أما الفلسفة الحديثة في القرن السابع عشر فتمتاز بأنها عصر العقل والمنهج، ولعل أخص ما يميز القرن الثامن عشر أنه عصر التنوير، وعرف القرن التاسع عشر بأنه عصر النزعة التاريخية. وجاء القرن العشرون إلى الربع الأول من القرن الحالي ليكون عصر التحليل القائم على اللغة والمنطق.

وإذا كانت الفلسفة التحليلية قد جاءت كرد فعل ضد المثالية المطلقة، فإنها تضرب بجذورها إلى أوائل القرن التاسع عشر عند يوهان فريدريش هربرت الذي كان منافسًا لشيلنج وهيجل (Beiser 2022: xi). وعلى الرغم من أنه تدرب على يد فيشته، فإن هربرت سرعان ما أصبح ناقدًا للتقليد المثالي وطور فلسفة مناقضة له. كانت فلسفته الخاصة معارضة للتقليد المثالي في جوانب مهمة: فقد دافع عن الثنائية بين الواقعي والمعياري، وكان تعدديًا وجوديًا وليس واحديًا. كان هربرت أيضًا رائدًا مهمًا

للفلسفة التحليلية، أولًا في كسر التقليد المثالي، وثانيًا في الإصرار على أن الطريقة الصحيحة للفلسفة هي تحليل المفاهيم بدلًا من التخمينات حول الكون ككل، وأن الفلسفة يجب أن تكون موجهة حول مشكلات، وأنها يجب أن تستمد مناهجها وموادها من الرياضيات والعلم الطبيعي.

وأخص ما تمتاز به الفلسفة التحليلية أنها تتسم بجملة من السمات لا يحتاج استكشافها إلى جهد أو عناء. فأما أولاها فهي تحري وضوح الفكر ودقته. وأما الثانية فهي وضع تحليل اللغة (أو المفاهيم) في قلب العمل الفلسفي، وهو ما عرف باسم التحول اللغوي. وأما الثالثة فهي النقد الذاتي. وأما الرابعة فهي الاستفادة من المنطق الرمزي (الرياضي) في البحث الفلسفي، وتوضيح العلاقات بين الحسابات المنطقية واللغة والفكر. وأما الخامسة فهي التأكيد على العلاقة بين الفلسفة والعلم. وتستطيع أن تقول دون أن تجاوز الحق في شيء إن الخصائص الثلاث الأولى شائعة في كتابات معظم التحليليين، وإن الاختلافات بينهم تظهر بعض الشيء مع السمة الرابعة، وتظهر أكثر ما تظهر عندما نصل إلى السمة الخامسة.

خذ السمة الأولى، تجد أن التحليليين يقدرون عادة الدقة والوضوح، وتراهم يعتقدون أن الألغاز الفلسفية تنشأ إلى حد ما بسبب الافتقار إلى الوضوح في الطريقة التي تُعرض بها المشكلات الفلسفية. وضَّح مور، مثلًا، في مقدمة «مبادئ الأخلاق» أن سبب الصعوبات والخلافات التي توجد في الأخلاق، مثلما توجد في بقية الفلسفة، هو محاولة الإجابة عن أسئلة من دون أن نفهم ما عسى أن تكون هذه الأسئلة على وجه الدقة. وذهب فتجنشتين في «الرسالة» إلى أن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار، وأن العمل الفلسفي يتألف في الأساس من توضيحات. ورأى رسل في «الذرية المنطقية» أن مهمة الفلسفة هي التحليل المنطقي المتبوع بتركيب منطقي، وأن الجانب الأكثر أهمية منها يتمثل في نقد وتوضيح الأفكار التى تعد أساسية ومقبولة من دون نقد.

نظر فلاسفة التحليل في تاريخ الفلسفة، فوجدوا أنها راكدة لا تتقدم كما تتقدم العلوم. وأن هذا التاريخ يزخر بخلافات عميقة لا سبيل إلى التوفيق بينها. تختلف مذاهب أفلاطون عن مذاهب أرسطو اختلافًا جذريًا، وقل مثل ذلك عن الأنساق

الميتافيزيقية عند ليبنتز وسبينوزا وكانط وهيجل. وطفق هؤلاء التحليليون يتساءلون: هل من سبيل إلى تحقيق تقدم حقيقي في الفلسفة؟ هل ستستمر هذه الفوضى في المستقبل؟ وهل سيستمر الفلاسفة في نقض بعضهم آراء بعض، أم سيكون هناك في النهاية نوع من الاتفاق العالمي، ووحدة اعتقاد فلسفي في العالم؟

مثل هذه الأسئلة طرحها مورتس شليك، مؤسس جماعة فيينا، في مقالة «مستقبل الفلسفة»1931. ولاحظ أن هناك أمرًا آخر قد يدفع المرء إلى التشاؤم في هذا الشأن، ألا وهو اختلاف مناهج كثرة من المدارس المتنافسة للوصول إلى الحقائق الفلسفية. يختلف منهج الشك عند ديكارت كثيرًا عن التناول البديهي عند سبينوزا، وتأخذنا الثورة الكوبرنيكية عند كانط في اتجاه مختلف تمامًا، وكذلك يفعل الجدل عند هيجل، وكذلك يفعل اقتراح هيدجر بالعودة إلى سؤال الوجود. على الرغم من كل هذا، يقترح شليك أن هناك أسبابًا للتفاؤل بأن عهد الفوضى الطويل سينتهي قريبًا، وسيتوقف الفلاسفة عن سخرية بعضهم من آراء بعض لماذا؟ لأن منهجية فلسفية جديدة تمامًا ظهرت على الساحة. وبفضل هذا التناول الجديد، ستُزال العقبة التي دامت قرونا من الزمن. ما عسى أن يكون هذا المنهج الثوري الجديد؟ الجواب أنه بدلًا من محاولة الكشف عن حقائق فلسفية مميزة حول طبيعة الواقع، سيكرس الفلاسفة اهتمامهم لتحليل القضايا بغية توضيح معناها الحقيقي.

وانظر إلى السمة الثانية، تجد أن الأمر الأكثر وضوحًا في التقليد التحليلي هو التركيز على اللغة بوصفها موضوعًا ذا أهمية فلسفية كبيرة في حد ذاتها، وبوصفها طريقًا إلى الفهم الفلسفي لموضوعات أخرى في الميتافيزيقا والأخلاق، وَهَلُمَّ جَرًّا. وكان الرأي عند دميت أن الفلسفة التحليلية ولدت عندما حدث التحول اللغوي، وأن هذا التحول اتخذه فريجه الذي حدد هدف الفلسفة في تحليل بنية الفكر، وذهب إلى وجوب التمييز بين دراسة الفكر وعملية التفكير النفسية، وأكد أن الطريقة الصحيحة الوحيدة لتحليل الفكر هي تحليل اللغة.

فتحليل اللغة دلالة وتركيبًا قائم في كتابات التحليليين منبث في مناهجهم وطرائقهم كما ينبث الماء في الغصن. وقد يقع في الظن أن العناية بالتحليل اللغوى أو

التحليل المنطقي للغة تعني الانشغال بفلسفة اللغة. وهذا خطأ يتمثل في خلط المنهج بالموضوع. والصواب أن العناية الفائقة بتحليل اللغة، وهي الظاهرة التي تمتاز بها الفلسفة التحليلية وتستبين فيها على نحو أوضح مما تستبين في غيرها من المدارس الفلسفية، تسري في كل معالجة لأي فرع فلسفي. وحتى الفلاسفة الذين لم يعملوا قط في فلسفة اللغة، مثل توماس نيجل، يقرون بأن خلفية التعليم التحليلي كان لها أعظم الأثر في طريقة تفكيرهم وكتابتهم.

وهناك سمة ثالثة هي النقد الذاتي. المتأمل في كتابات التحليليين يجد أنهم يقدمون أفكارهم للفحص والنقد بطريقة علمية ومنهجية. وعادة ما تخضع كتاباتهم لصرامة التقييم النقدي والمناقشة من قبل الأنداد، الأمر الذي يضفي على هذه الكتابات قدرًا كبيرًا من العقلانية والاحترام الفكري. وأيسر الأدلة على ذلك أن ماريو بوجي أرسل عملًا فلسفيًّا على هيئة «محاورة» إلى مجلة «عقل» التي كان يرأس تحريرها جلبرت رايل، وكان الرد هو الرفض بسبب الأسلوب الحواري.

وهناك سمة رابعة وهي الإفادة من المنطق الرمزي. نشأ المنطق الرمزي (أو الرياضي) عند منتصف القرن التاسع عشر ثم خضع لمؤثرات كثيرة دفعته إلى تطورات مهمة في القرن العشرين. وبصرف النظر عن أهميته الجوهرية، وأهميته لدراسات الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي، فقد مارس تأثيرًا هائلًا في الفلسفة في حد ذاتها. واعترف جميع الفلاسفة التحليليين تقريبًا بأن هذا المنطق الجديد، مع علاقته الوثيقة بالرياضيات، يعد مكونًا أساسيًّا في التنظير العلمي والفلسفي. واعتقدوا أيضًا بأن التقدير والفهم المناسبين للمنطق الحديث يمكن أن يساعد في حل القضايا والألغاز الفلسفية. ورأى كثير من هؤلاء الفلاسفة أن الجمع بين المنطق والعلم يشكل نموذجًا يجب أن يتبعه البحث الفلسفي. وكانت الوضعية المنطقية صورة نموذجية لهذا الرأي. وفي هذا السياق جاءت نظريات المعنى والإشارة التي طورها كارناب، وكواين، وبتنام، وديفيد كابلان، وروث باركان ماركوس، وكريبكي، وبيتر سيمونز، ومن نحا فعالهم وتحرى مقالهم.

وعلى كل حال، إذا كانت غاية الفلسفة في جانبها الأكبر هي توضيح الفكر، فإن بلوغ هذه الغاية يحمل معه شيئًا من الاختلاف بين التحليليين. فترى فريجه ورسل وفتجنشين المبكر والتجريبيين المنطقيين وتارسكي وكواين، ومن قصد قصدهم،

يحبذون الطريقة الصورية الصارمة التي تتوسل باللغة المثالية أو الكاملة منطقيًّا عند معالجة المشكلات الفلسفية. أما مور وفتجنشتين المتأخر وفلاسفة أكسفورد وديفيدسون وسيرل، ومن سلك سبيلهم، فيفضلون التعامل مع اللغة الطبيعية في البحث الفلسفي.

وأخيرا تأتي السمة الخامسة وهي التأكيد على العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والعلم. ينظر الفلاسفة التحليليون إلى العلوم الطبيعية بوصفها مصدرًا شرعيًّا ونموذجيًّا للمعرفة حول العالم، وها هو رسل في «الذرية المنطقية» يقرر أن العلم لديه احتمالية أكبر بكثير لأن يكون صادقًا من أي فلسفة متقدمة إلى الآن، ومن الحكمة أن نبني فلسفتنا على العلم.

وفي هذا السياق برزت النزعة العلمية -وهي الدعوى القائلة إن مناهج العلوم الطبيعية هي وحدها التي تؤدي إلى المعرفة- على نطاق واسع في نظرية المعرفة، والميتافيزيقا، وفلسفة اللغة، وفلسفة العقل. وفي عام 1918، صاغ شليك هذه الدعوى هكذا: بما أن العلم من حيث المبدأ يمكنه أن يقول كل ما يمكن قوله، فلن يبقى هناك سؤال غير قابل للإجابة. وفي وقت لاحق عبرت عنها باتريشيا تشرشلاند في «الفلسفة العصبية» 1986 على النحو التالي: على المدى الطويل المثالي، العلم المكتمل هو وصف حقيقي للواقع: لا توجد حقيقة أخرى ولا واقع آخر. ويؤيد كاتب هذه السطور صورة معتدلة من النزعة العلمية، على خلاف هذه الصورة المتطرفة، تراها في كتابي «نظرية المعرفة المعاصرة» وفي غير موضع من أعمالي الأخرى.

وتفاعل التحليليون مع تأثير العلم بطريقتين أساسيتين. فأما أولاهما فتتبنى النزعة العلمية بصور منوعة. ومن فلاسفة هذه الطريقة رسل، وفتجنشتين المبكر، والوضعية المنطقية، وكواين، والزوج الكندي في وقتنا الحالي بول وباتريشيا تشرشلاند. وأما الثانية فتدافع عن استقلال الفلسفة عن العلم وترفض النزعة العلمية. ومن فلاسفة هذه الطريقة مور، وفتجنشتين المتأخر، ونورمان مالكولم، وأوستن، ورايل، وستراوسون، وتوماس نيجل في وقتنا الحالي، الذي يعتقد أن التمسك بالنزعة العلمية يشكل عائقًا أمام الفهم الكامل لأنفسنا، ويحد من القدرة على استكشاف الأسئلة ذات القيمة بكل أنواعها.

ولعل التباين الذي أحدثته أفكار فتجنشين المتأخر مع بعض أفكاره المبكرة خاصة ومع التقليد التحليلي بشكل عام قد دفع بعض الفلاسفة مثل فون رايت إلى استبعاد

فلسفة فتجنشين المتأخرة من هذا التقليد. ولكنك لا تعدم صوتًا قويًا مضادًا هو بيتر هاكر الذي يمكن تلخيص كتابه «مكانة فتجنشتين في الفلسفة التحليلية في القرن العشرين» في زعمين مسرفين: (1) لو لم نستمع إلى فتجنشتين المبكر، لما ظهرت الفلسفة التحليلية أبدًا، و (2) إذا لم نستمع إلى فتجنشتين المتأخر، فستختفي الفلسفة التحليلية قريبًا.

وأنت ترى إذًا أن قصة الفلسفة التحليلية تتألف من عدة فصول، يمثل كل فصل منها صورة تتشابه قسماتها مع الصور الأخرى أحيانًا وتتباين معها أحيانًا أخرى. ولا غرو أن نصف العلاقة بين تيارات الفلسفة التحليلية، وإن شئت فقل فصول قصتها، في حدود الدوائر المتداخلة من تشابهات العائلة.

وفيما يتعلق ببنية الكتاب، ستجد أن الفصول السبعة الأولى تبحث في تصورات المنهج التحليلي، وتساير تطور الفلسفة التحليلية في تياراتها المنوعة وفتراتها الزمنية المتصلة بداية من مناقشة المعنى والإشارة عند فريجه إلى المسألة الصعبة في الوعي عند ديفيد شالمرز في وقتنا الحالي. وما أزعم لهذا الكتاب إحاطة ولا شمولًا، وإنما هو محاولة تتحرى الدقة والوضوح في الوقوف على الأفكار والاتجاهات والمشكلات الأساسية في التقليد التحليلي.

ويأتي الفصل الثامن والأخير ليكون تطبيقًا من جانبي للمنهج التحليلي على موضوع المفاهيم. وأحسب أن هذا الموضوع له أهمية فكرية جد خطيرة. فنحن نلاحظ أن أصواتًا تعلو بين حين وآخر تنادي بتجديد الخطاب الديني، وتجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وتستخدم ذلك الجدال لإثارة الشكوك في نفوس الناشئة. وتعتمد هذه الأصوات على التعامل مع المفاهيم مثل تحريف معنى المفهوم، أو الشك في دلالته الأصلية. ولذلك يأتي هذا الفصل ليقدم درسًا فلسفيًّا دقيقًا للمفاهيم بداية من معنى المفهوم في اللغة والاصطلاح، مرورًا ببيان الوضع الأنطولوجي والإبستمولوجي للمفاهيم، والنظريات الفلسفية المفسرة لها، وانتهاء بضرورة دراستها.

عشت مع الفلسفة التحليلية أربعين عامًا. بدأت هذه الرحلة برسالتي للماجستير حول التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ثم أطروحتي للدكتوراه عن فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين. ثم جاءت دراساتي عن مفهوم الصدق عند دونالد

ديفيدسون، ومشكلة الوعي عند جون سيرل، ونظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، ونظرية القصدية في فلسفة سيرل، وغيرها من كتب حول الإبستمولوجيا الطبيعية، ونظرية المعرفة المعاصرة في سياق الفلسفة التحليلية، وقل مثل ذلك عن فلسفة العقل التي قدمتها لأول مرة في اللغة العربية. بالإضافة إلى ترجمات جاءت في السياق التحليلي أيضًا تتعلق بسيرل، وفتجنشتين، وإرنست سوسا، وفلسفة العقل، وفلسفة العلم. وكان آخر ما ظهر لي: علم الاستعمال بعد جرايس.

وتلاحظ أنني في كل هذه الأعمال أقدم دراسات جديدة غير مسبوقة في العربية. ويعلم الله وحده كم تحملت من عناء شاق بغية الحصول على مصادرها عندما لم تكن متوفرة كما تتوفر هذه الأيام. وأقول بكل ما يملكه المرء من تواضع إن ترجمة معظم المصطلحات المعاصرة في فلسفة اللغة، وفلسفة العقل، ونظرية المعرفة المعاصرة هي من جهدي. والذين لا يصادفون هذه الترجمات أو يحيدون عنها ربما يقعون في أخطاء. ومما يحزنني أن تشيع هذه الأخطاء بين الطلاب وشباب الباحثين، ولا يميز الترجمة الخاطئة للمصطلحات من الترجمة الصحيحة إلا الراسخون في العلم. تزخر المكتبة العربية بدراسات وترجمات حول الفلسفة التحليلية لم يتسع المقام للإشارة إليها، بما فيها أعمالي، وآثرت الرجوع إلى الأصول.

ولا يفوتني أن أشكر القراء على تقبلهم ما أكتب بقبول حسن. وكلي أمل أن يجدوا في هذا الكتاب مادة ثرية تثير في عقولهم تفكيرًا خصبًا. وتحية خاصة إلى صديقي الأستاذ الوليد السقاف الذي سعى في نشر الكتاب في مركز نماء للبحوث والدراسات، وأشكر للقائمين على المركز عنايتهم الكريمة به. وأرجو من الله أن يكون نافعًا للناس، وفي ميزان حسناتي. وعلى الله قصد السبيل.

مدينة 6 أكتوبر

4 ذو القعدة 1445هـ – 12 مايو 2024م صلاح إسماعيل